Culture and Sociology in Marxist Theory

Dr. Boushra Abbas*

(Received 8 / 9 / 2019. Accepted 9 / 10 / 2019)

□ ABSTRACT □

The research discusses the notion of culture and its relationship to sociology in the Marxist theory. It touches upon a group of problems which are of epistemological and methodological importance within the Marxist theory. The research also surveys the current definition of culture within the culturally related societal and scientific circles. This notion is also examined in the traditional Marxist definitions and their more modern counterparts. Moreover, the association between culture and history is touched upon through the Marxist contexts that consider culture as an essential part of the process of history, and more especially of historical work. The later aspect has actually witnessed a vitality of notion when associated with history. That is, work means, in particular, the productive work. It does not only mean the level of goods production, but also that of cultural production too. Within such a context, the research tackles the concept of culture, and it also reaches a concept which it labels as historicized culture or culture of history. As a last point, the meanings of culture and civilization in Marxist philosophy are also stated. Demarcating what is ideological and what is cultural is then explained in a manner where no mixing between the notion of Marxist ideology and that of civilization would take place. Moreover, extreme consideration is paid on our part to reveal modern theories within Marxism itself for the sake of avoiding an unhistoricized mixing of what is civilized and what is ideological in the first place; even if this demarcation is epistemological more than being ontological.

Key Words: Culture, History, Ideology, Sociology, civilization

* **Assistant Professor, Department Of Philosophy In The Faculty Of Arts And Humane Science Damascus University, Damascus-Syria**

الثقافة والسوسيولوجيا في النظرية الماركسية

الدكتورة بشرى عباس *

(تاريخ الإيداع 8 / 9 / 2019. قبل للنشر في 9 / 10 / 2019)

□ ملخّص □

ناقش البحث مفهوم الثقافة وعلاقتها بالسوسيولوجيا داخل النظرية الماركسية، فتطرق إلى مجموعة من المسائل ذات الأهمية المعرفية والمنهجية داخل النظرية الماركسية، فعرج البحث على تعريف الثقافة المتداول في الأدبيات الاجتماعية والعلمية التي تناولت الثقافة، ثم تناولها داخل التعريفات الماركسية التقليدية، ثم التعريفات الماركسية الأكثر حداثة، كما تعرض البحث لعلاقة الثقافة بالتاريخ ضمن الأطر الماركسية، والتي تعتبر أن الثقافة هي جزء لا يتجزأ من عملية التاريخ وخصوصاً العمل التاريخي الذي شهد مفهوماً حيوياً عندما تم ربطه بالتاريخ حيث العمل هو العمل المنتج ليس فقط على مستوى الإنتاج البضائعي وإنما أيضاً على مستوى الإنتاج الثقافي وضمن هذا المعنى عالج البحث مفهوم الثقافة ووصل إلى ما أسماه تاريخية الثقافة أو ثقافة التاريخ، وأخيراً تحدث البحث عن معنى الثقافة ومعنى الحضارة في الفلسفة الماركسية مبيناً الفصل بين ما هو ايديولوجي وبين ما هو ثقافي في مفهوم الحضارة بحيث لا يتم الخلط بين مفهوم الايديولوجيا الماركسي ومفهوم الحضارة، وقد حرصنا على الكشف عن النظريات الحديثة داخل الماركسية نفسها من أجل الابتعاد عن الخلط اللاتاريخي بين ما هو حضاري وما هو ايديولوجي بالدرجة الأولى حتى وأن كان هذا الفصل هو فصل ابستمولوجي أكثر مما هو فصل انطولوجي.

الكلمات المفتاحية: الثقافة، التاريخ، الايديولوجيا، السوسيولوجيا، الحضارة

* **مدرس، قسم الفلسفة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق، دمشق، سورية.**

مقدمة:

تبدو الثقافة وكأنها أفقاً مفتوحاً يغوص فيها الباحثون من كل المشارب والحقول والاتجاهات، ولأن الأمر كذلك فإن الخوض في الثقافة يتطلب نوعاً من الحذر التاريخي الذي يفترضه البحث العلمي بكل دلالاته وقوانينه، وقد حدث أن تم الحديث عن الثقافة وكأنها أرث علمي وبحثي لكل من أراد ذل، إلا أننا في هذا البحث أثارنا أن نتعامل مع مفهوم الثقافة داخل نظرية بعينها هي النظرية الماركسية، كما أننا لم نقتصر في هذا البحث على مفهوم الثقافة وحده، بل حاولنا الربط بين الثقافة والسوسيولوجيا والتاريخ باعتبار إن ميدان الفلسفة الماركسية هو التاريخ بكل تعيناته الايديولوجيا والثقافية وغير ذلك.

وكان لابد والأمر كذلك أن نقف أولاً على التعريفات المختلفة لمفهوم الثقافة، حيث تناولنا هذا التعريف ضمن سياقات وحقول متعددة عامة وخاصة، فهناك من التعريفات ما هو ينتمي إلى الفضاء العام للثقافة وبعض التعريفات الأخرى تنتمي إلى الفضاءات الضيقة أو الخاصة إذا جاز القول كما هو الحال عندما نتحدث عن ثقافة الفرد، ثقافة الجماعة، ثقافة المجتمع وغير ذلك.

بعد ذلك تناولنا العلاقة بين الثقافة والتاريخ منطلقين في ذلك من لحظة أساسية، وهي البحث في معنى التاريخ وارتباطه بشكل مباشر بالثقافة لدى الماركسية خصوصاً وأن التاريخ هو المقولة الجوهرية والأساسية التي في المنظومة الماركسية، ولكن ما ركز عليه البحث هو أن التاريخ ليس فقط الفعل والنشاط البشري الذي يؤدي إلى تغير في النمط الثقافي، بل كذلك ركز البحث على العمل بوصفه المنتج لما هو إنتاج مادي وما هو إنتاج ثقافي وهذا بحد ذاته جعل من البحث ميزة أساسية لأنه ركز على أن الثقافة هي نتاج العمل المنتج؛ أي العمل الذي ينتج القيم الاقتصادية وينتج بالتالي القيم الثقافية وهو ما يميز الثقافة في النظرية الماركسية، فليست الثقافة نتاج الأفكار المجردة بل هي نتاج المعرفة في ارتباطها مع المصالح.

وبعد ذلك ناقش البحث علاقة الثقافة بالحضارة من زاوية التركيز على الفصل بين ما هو ثقافي عما هو ايديولوجي، وذلك لكي لا تبدو الحضارة وكأنها ذات طابع ايديولوجي يحمل رموزاً سياسية وثورية بدلاً من الرموز الثقافية التي تشير إلى معنى العمل المنتج في الماركسية، وبالتالي طرق وأشكال تكون المجتمع في العالم التاريخي الماركسي.

أهمية البحث وأهدافه:

أهمية البحث:

يتمتع هذا البحث بأهمية قصوى كونه يناقش الثقافة من أجل فهم طبيعة النظرية الماركسية في إطارها الثقافي وليس في إطارها السياسي والاجتماعي التاريخي.

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى الاطلاع على التحول الجذري الذي طال مفهوم الثقافة داخل النظرية الماركسية، فهنا لم تعد الثقافة مجرد ترف فكري، كما لم تعد مجرد تعبير عن الأنثروبولوجيا وإنما أصبحت جزءاً أساسيا لا يتجزأ من عملية العمل المنتج على المستويين الاقتصادي والثقافي.

منهجية البحث:

اعتمدنا في هذا البحث على المنهج المادي الجدلي التاريخي الذي صوبنا من خلاله مفاهيم عدة منها مفهوم الثقافة ثم مفهوم الايديولوجيا ثم مفهوم السوسيولوجيا وهو ما أضاء موضوع البحث وألقى بظلاله على الفكرة المركزية للبحث ألا وهي الثقافة والسوسيولوجيا.

النتائج والمناقشة.

أولاً: تعريف الثقافة.

ربما كان تعريف مصطلح ما بالرغم مما يمتلكه من مشروعية جادة في البحث العلمي أمرٌ يحتاج إلى الكثير من التدقيق والتفحص، فنحن لا نستطيع أن نعثر على تعريف جامع مانع للمصطلحات طالما أنها مصطلحات متغيرة بحسب استخداماتها داخل السياقات البحثية والتاريخية، وربما يكون هناك ضرورة منهجية لتحديد المصطلحات من أجل منع الخلط والتداخل فيما بينها، وفيما يتعلق بمفهوم الثقافة وتعريفها فإن المسألة تغدو أكثر صعوبة، ذلك إن مفهوم الثقافة من المفاهيم الغائمة والتي تستخدم في سياقات تنطلق تدريجاً من الخاص إلى العام، ومن الميتافيزيقي إلى التاريخي، ومن الفلسفي إلى الاجتماعي مروراً بالإيديولوجي مما يزيد الأمر تعقيداً على الباحث فيما لو حاول تقديم تعريف نهائي وكامل لمفهوم الثقافة، ذلك أن التداخل الذي يحدث بين ما هو ثقافي وما هو ميتافيزيقي ليس أقل تعقيداً من ذاك التداخل الذي نجده بين ما هو ثقافي وما هو ميتافيزيقي ليس أقل تعقيداً من ذاك التداخل الذي نجده بين ما هو ثقافي وما هو تاريخي واجتماعي، ففي هذه الحقول البحثية التي ذكرناها يصعب وضع حدود فاصلة ودقيقة بين تلك الحقول والثقافة فما هو ثقافي قد ينحل إلى ما هو اجتماعي عندما لا يمكن الفصل بينهما ابستمولوجيا، مع التشديد على هذه الناحية ذلك أن الثقافة تبدو في متناول الجميع علمياً واجتماعياً كما لو أن الثقافة ليست طرحاً ينتمي إلى الطروحات العلمية وضمن تقاليد البحث العلمي ، طالما أن هناك شعور بأن الثقافة أكثر من مجرد ظاهرة قابلة للبحث العلمي كغيرها من الظواهر وطالما أن هناك من يرى أن الثقافة هي عكس الطبيعة"[1]، وهؤلاء الذين يقولون بهذا الرأي يريدون أن يؤكدوا على ناحية أساسية وهي أن ما هو ثقافي يختلف عما هو طبيعي، بهذا المعنى فإن الثقافة تبدو هنا منجزاً إنسانياً؛ أي أنه انجاز إنساني تجاوز ما هو طبيعي إلى مرحلة العمل والابداع الإنساني، حتى كأن الثقافة والحال كذلك تبدو صناعة بشرية، ومن هنا يمكن أن نفهم لماذا تتعدد الآراء والتعريفات للثقافة خصوصاً وإن الثقافة هي أمر مكتسب يكتسبه المرء مع ومن خلال نموه النفسي والبيولوجي والاجتماعي داخل مجتمع ما، وطالما أن الأمر كذلك؛ أي طالما أن الثقافة هي أمر مكتسب ويكتسبه المرء خلال سنين طويلة داخل جماعات اجتماعية وتمتلك عادات وتقاليد مختلفة وهذه العادات والتقاليد هي عادات تخص جماعات معينة دون غيرها فإن ذلك يجعل من تعدد مفهوم الثقافة وتعريفاتها أمراً بالغ الصعوبة طالما أن هناك تعدد حضاري وتاريخي بين البشر، ضمن هذا السياق يطرح مفهوم الثقافة مشكلات تتعلق بالتعدد الثقافي من حيث تعدد الاعتقاد واللغات لنصل إلى مفاهيم النماذج الثقافية التي تتعدد بتعدد تلك اللغات وتلك العادات وهذه المسألة كان قد أشار إليها جاك دريدا عندما ناقش مسألة الثقافة والهوية

[1] – **هولبورن وهارلمبس. سوسيولوجيا الثقافة والهوية، ت: حاتم حميد محسن، دار كيوان، دمشق، ط1، 2010، ص7.**

وعلاقة كل منهما باللغة"[1]، إذ إن جاك دريدا كان قد تحسس علاقة الثقافة باللغة وكيف تنعكس ثقافة ما من خلال لغة ما لنجد أن تعريف الثقافة ومفهومها هو تعريف متحرك في فضاءات مختلفة تفرضها أولاً فضاءات اللغة والعلاقات الداخلية لهذه اللغة ثم دلالاتها الاجتماعية بوصفها علاقات خارجية بين اللغة وتمثلها الاجتماعي ضمن شبكة العلاقات الاجتماعية المستندة إلى المفاهيم اللغوية، ويتجاوز الأمر؛ أي البحث في تعريف الثقافة حدود العلاقة بين اللغة والمجتمع لنجد أن هناك عنصراً هاماً يدخل في تشكل الثقافة وهو الاقتصاد وبهذا الصدد نشير هنا إلى ملاحظة انجلز بأن ظهور الملكية الخاصة أدى إلى قيام التبادل بين الأفراد"[2]، أي أننا نرى هنا أن مفهوم التبادل هنا ليس فقط التبادل التجاري بل التبادل الثقافي من حيث إن هذا التبادل يفرض نوعاً من إيجاد تواصل تجاري يرافقه تواصل ثقافي، وهنا يمكن أن نرى أن الثقافة تنطوي على عنصر الاقتصاد تماماً كما تنطوي على عنصر اللغة وعنصر التقاليد والعادات الاجتماعية، وعند مراجعة التعريفات الكثيرة للثقافة نجد أن أي تعريف لابد له أن يأخذ بعين الاعتبار هذه العناصر، وبهذا الشأن يمكن العودة إلى المعاني الرئيسة الأربعة التي وضعها كريستوفر جينز حيث يميز بين ثقافة النخبة؛ أي النخب الفردية ثم ثقافة النخب الاجتماعية ثم الثقافة بوصفها إنتاج جماعي للفنون والفكر والأدب وأخيراً الثقافة بوصفها أسلوباً في الحياة"[3]، ونلاحظ أن هذه الأشكال الأربعة التي يتحدث عنها كريستوفر تتفق في أن الثقافة إنتاج إنساني سواء كان هذا الإنتاج فردي أم جماعي وأن عناصر الثقافة هي تلك العناصر التي أشرنا إليها، ونعني بذلك الاقتصادي واللغوي والاجتماعي، ما يشير إلى أن الثقافة داخل السياقات التاريخية تأخذ شكلاً واحداً وإن اختلفت من حيث المكان الذي توجد فيه بحسب الشروط التاريخية أو بحسب تغير هذه الشروط من مكان إلى آخر؛ أي أن هناك عند البحث في مفهوم الثقافة لابد من حفظ الخصوصيات التاريخية التي تتواجد فيها الثقافة في هذا المكان أو ذاك بحسب التعريف الذي أورده كريستوفر للثقافة ويمكن في حال التركيز على هذا التعريف أو ذاك نجد أن الثقافة ليست ثقافة واحدة في كل مجتمع، بل إننا نجد أن المجتمع الواحد ينطوي على مجموعة من الثقافات، حيث الثقافة هنا تشكل أنماطاً للعيش أكثر مما هي وجهة نظر فكرية من العالم ونستطيع أن نلاحظ هنا ما قام به علماء الأنثروبولوجيا في مجال التمييز الثقافي داخل المجتمع الواحد من حيث إن مواقف البشر وسلوكاتهم العادية تهدف إلى التمييز بين مفهومي الإنسانية والحيوانية حيث يشير هذا التمييز إلى الفصل بين ما هو ثقافي وما هو طبيعي، حيث يرى شتراوس أن ما هو إنساني هو ثقافي وما هو طبيعي ينتمي إلى الجذر الحيواني، بل إن الأنا الإنساني لا يوجد بذاته أبداً بل يوجد في الجماعة أو كما يقول شتراوس" ليس ثمة أنا إلا وهو جزء من نحن"[4]، وهذا تأكيد أنثروبولوجي على تشكل الثقافة ضمن الجماعات لأن الثقافة جعلت الإنسان مستقلاً عن الإله كما عن الحيوان وذلك لأن الإنسان عندما حقق إنسانيته أصبح كائناً ثقافياً ونجد كل هذه الرؤية لدى أتباع البنيوية عندما يبحثون عن الإنسان في الخطاب ويكتشفون أن الذات الإنسانية في عملية إنتاجها للثقافة لا تعود ذاتاً واحدة بل تصبح متغيرة على نحو يشرح بعدها الثقافي خصوصاً إن الذات في نشاطها الثقافي تنتج اللغة، هذه اللغة التي تعود بدورها لتنتج الذات بالمعنى الثقافي"[5]، وعندما نتحدث عن علاقة الثقافة باللغة فإننا هنا نعود إلى التبني الأنثروبولوجي لمفهوم الكائن البشري بوصفه كائناً لغوياً، والنظر إلى اللغة

[1] – دريدا، جاك. أحادية الآخر اللغوية، ت: عمر مهيبل، منشورات الاختلاف، بيروت، ط1، 2008.ص23.

[2] انجلز، فريدريك. أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة، ت: أديب يوسف شيش، دار التكوين، دمشق، 2011، ص164

[3] هولبورن وهارلمبس. سوسيولوجيا الثقافة والهوية، (مرجع سبق ذكره)،ص8.

[4] – ليتش، إدموند. كلوديفي شتراوس، ت: ثائر ديب، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2002، ص43.

[5] – دلوز، جيل. المعرفة والسلطة(مدخل لقراءة فوكو)، ت: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1987، ص58.

بوصفها الحد الفاصل الذي يفصل بين الثقافة والطبيعة وهنا أيضاً تبرز رؤية شتراوس في الكيفية التي تشكل بها الإنسان بوصفه كائناً مختلفاً عن الحيوان، وجدير بالذكر أن شتراوس هنا يستند إلى نظرية جان جاك روسو حول أهمية استخدام الإنسان للمجاز لإدراك الفروق بين الإنسان والكائنات الأخرى التي تشبه"[1] ، وفي السياق نفسه نجد أن السؤال حول معنى الكائن البشري كان قد أثار مناقشات نوعية لدى فلاسفة التفكيك ومنهم جاك دريدا الذي لفت إلى أن لمفهوم الإنسان حدوداً تاريخية وثقافية ولغوية وينتهي أيضاً إلى المقابلات الفكرية التي تؤدي إليها الثقافة مثل الرجل مقابل المرأة، والإنساني مقابل اللاإنساني، والثقافة مقابل الطبيعة"[2]، وبهذا الشكل نجد أن الثقافة لا تمتلك تعريفاً واضحاً ومباشراً، بل إنها تتخذ أشكالاً متعددة عندما نحاول تعريفها وخصوصاً عندما ترتبط الثقافة بالهوية أو باللغة أو بالطبقة والعرق والجنس كما يشير إلى ذلك بعض الباحثين[3] مما يعني أن مفهوم الثقافة خاضع للتغير بحسب الدالة الاجتماعية أو الاقتصادية أو المعرفية التي ترتبط بها الثقافة من مكان إلى آخر؛ فنحن نجد أن ارتباط الثقافة بالعرق يحول الثقافة إلى أيديولوجيا ضيقة من حيث الأطر الفكرية، وهذا الأمر ينطبق على علاقة الثقافة بالهوية حيث الهوية لا تقيد الثقافة فقط بل تجعل منها نمطاً فردياً يميز الفرد به نفسه في أي مكان تواجد فيه، كما لو أن الثقافة في هذه الحالة تصبح كلون البشرة والسمات والخصائص المميزة للفرد عن غيره من الأفراد ضمن المجتمعات.

ويمكن القول أن دراسة مفهوم الثقافة مدين إلى الأبحاث التي جرت في ميدان الطبيعة البشرية والأنثروبولوجيا وعلم اللغة، من حيث إن هذه الأبحاث قد قدمت مفاهيم جديدة حول الثقافة فيما هي تدرس الطبيعة البشرية والعلاقات الإنسانية داخل القبائل البدائية وصولاً إلى تلك العلاقات داخل الدول الحديثة والمجتمعات التي قامت على فهم الطبيعة البشرية، والذي ميز هذا الفهم هو التأكيد على التغير الذي يصيب الثقافة من حيث الشكل لا من حيث المضمون، إذ إن المسرح يتغير، وتتغير البنى التاريخية وتبقى الذات الإنسانية مشدودة إلى أفعالها ونتائج هذه الأفعال بشكل يعبر عن نوع الثقافة الذي تشربته هذه الذات أو تلك"[4]، وبهذا المعنى فإن مفهوم الثقافة يجد تعبيره الأمثل في الفهم الأنثروبولوجي الذي رافق تطور مفهوم الإنسان وتشكله ثقافياً ثم جاءت الفلسفات المعاصرة لتكشف عن حدود هذا المفهوم وخصوصاً الحدود الثقافية المرتبطة بكل من اللغة والتاريخ.

ثانياً: الثقافة والتاريخ في الماركسية:

تطرح الماركسية نفسها بوصفها فلسفة للتاريخ وبهذا الشأن فإن الثقافة لا تبدو منفصلة عن مفهوم تاريخ الفلسفة وفلسفة التاريخ عند ماركس وفي الماركسية عموماً، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو الذي يتعلق بالثقافة من حيث هي ترميز مهم في فهم صلب الفلسفة الماركسية، وقد قامت الماركسية على مفاهيم أساسية تتضمن من ضمن ما تتضمنه مفهوم المجتمع الثقافي أو بمعنى آخر علم الاجتماع الثقافي النظري الذي من خلاله استطاعت الماركسية أن تقدم نظرية عامة عن التطور الاجتماعي وخصوصاً فيما يتعلق العلاقة بين الثقافة والطبقة داخل المجتمع الواحد، طالما أن الماركسية تتحدث عن المجتمع الطبقي وقد برز بعض المفكرين الماركسيين الجدد الذين رأوا أن الحديث عن توافق بين

[1] ليتش، إدموند. كلوديفي شترواس، (مرجع سبق ذكره)، ص45.

[2] – بورادوري، جيوفانا. الفلسفة في زمن الإرهاب، حوارات مع يورغن هابرماس وجاك دريدا. ط1، ت: خلدون النبواني، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2013، ص48.

[3] هولبورن وهارلمبس. سوسيولوجيا الثقافة والهوية، (مرجع سبق ذكره)، ص111.

[4] – غيرتر، كليفورد. تأويل الثقافات مقالات مختارة، ت: محمد بدوي. ط1. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2009،ص133.

الثقافة والطبقة ليس صحيحاً بقدر ما أننا نجد استقلالية بين الطبقة والثقافة، كما هو الحال في نظرية الماركسي الحديث ريموند وليمس الذي حاول أن يتحدث عن مظهرين رئيسيين للنظريات الماركسية في الثقافة: " أولاً هو رأى أن استعمال أفكار البناء التحتي والبناء العلوي عملية مضللة. فهو يقول البناء والبناء الفوقي كعبارات متشابهة إنها تعبر مباشرة عن علاقات ثابتة ومجردة. غير أن الحقيقة التي تعرف بها ماركس وانجلس هي أقل تحديداً وكذلك أقل وضوحاً. ولم ينكر وليمس تأثير العوامل الاقتصادية على الثقافة ولكنه أنكر قابليتها على صياغة الثقافة بشكل صريح وواضح. وفي كتابات وليمس هناك مساحة كبيرة للجوانب التاريخية والفعاليات الخلاقة للأفراد والجماعات قياساً بنظريات الماركسيين الآخرين"[1]. وفي الشأن نفسه يتابع وليمس نقد الثقافة ضمن المفهوم الماركسي الذي يتم اختزالها إلى مجرد تأكيد على موقع الأدب والفن في الثقافة بعيداً عن حقول الثقافة الأخرى وهو يعبر عن ذلك بقوله:" أن النظريات الماركسية في الثقافة تهتم كثيراً بالفن والأدب. فهو يرى أن النظرية الماركسية تؤكد على العلاقات المتبادلة بين جميع مظاهر الواقع الاجتماعي بينما التركيز على حقل ضيق كالفن والأدب يجب أن لا يعتبر كشيء موازي للثقافة. ولذلك فهو يعتقد أن على الماركسيين أن يستعملوا(وفق المنطق) كلمة ثقافة باعتبارها طريقة كاملة للحياة وعملية اجتماعية شاملة"[2]. وقد انشغلت النظرية الماركسية بقضايا الثقافة منذ النقد الذي وجهه ماركس لفينومينولوجيا الروح عند هيغل منذ مخطوطات 1848،التي ناقش فيها ماركس قضايا المعرفة المطلقة وعلاقتها بالثقافة ثم علاقتها بفلسفة الهوية وطبيعة المجتمع وأثر هذه المعرفة والثقافة في التكون الطبيعي والاجتماعي للبشر وبعد ذلك التحول الاجتماعي الذي ينجم عن طريق تحول المادة، وهنا يشير ماركس إلى مفهوم العمل الذي هو شرط الوجود الإنساني المستقل، وهنا تبدو الثقافة جزءاً أساسياً من المجتمع في النظرية الماركسية، وتبدو الصيرورة بمثابتها إعادة إنتاج العمل الاجتماعي وبحسب هابرمس " ليس العمل أنثروبولوجيا مقولة أساسية وإنما وفي الوقت ذاته مقولة مرتبطة بنظرية المعرفة، لأن الطبيعة المحيطة وحدها تتكون فقط في التوسط مع الطبيعة الذاتية للإنسان من خلال سيرورات العمل الاجتماعي كطبيعة موضوعية بالنسبة إلينا، ونسق الفعاليات المادية يخلق الشروط الفعلية لإعادة إنتاج الحياة الاجتماعية الممكنة، ويخلق في الوقت ذاته الشروط الترنسندنتالية للموضوعية الممكنة ولموضوعات التجربة"[3]، هنا نجد أن هابرمس يبحث في الجذر الأنثروبولوجي للمجتمع في النظرية الماركسية ولكن الأنثروبولوجيا الماركسية لا تهتم بالبحث في المفهوم الوظيفي للأنثروبولوجيا الاجتماعية بقدر ما تهتم بالكشف عن حقائق العقل البشري أكثر من اهتمامها بحقائق التنظيم الاجتماعي وهذا ما نجده عند شتراوس[4]، وهذا النوع من الأنثروبولوجيا الذي يبحث في حقائق العقل قبل الحقائق الاجتماعية يجعل من الثقافة والمجتمع طرفي معادلة أساسية في فهم التاريخ كما تساعد هذه الأنثروبولوجيا في فهم النظرية الماركسية حول تشكل المجتمعات والجماعات خصوصاً وأن مفهوم الأنثروبولوجيا هنا لا يقوم فقط على فهم كيفية تشكل العلاقات والعادات والتقاليد بل أيضاً يحاول أن يؤكد على دور العمل في جعل الإنسان إنساناً وجعل المجتمع مجتمعاً ولهذا نجد أن تقسيم العمل خلق مشكلات يمكن تفسيرها بناء على الأنثروبولوجيا الماركسية وأن تجعلنا نفهم ما الذي حدث بعد أن تطور المجتمع نتيجة العمل الاجتماعي وتقسيم العمل، ويوضح ذلك ما يذكره انجلز في كتابه أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة:" أول تقسيم للعمل هو تقسيم العمل بين الرجل والمرأة من أجل إنجاب الأطفال، واليوم أستطيع أن أضيف: أول

[1] هولبورن وهارلمبس. سوسيولوجيا الثقافة والهوية، (مرجع سبق ذكره)،ص33.

[2] – المرجع نفسه، ص34.

[3] – هابرمس، يورغن. المعرفة والمصلحة، ت: حسن صقر، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2002، ص32.

[4] – ليتش، ادموند. كلود ليفي شتراوس دراسة فكرية،(مرجع سبق ذكره)، ص4.

تضاد طبقي يظهر في التاريخ يطابق نشأة التضاد بين الرجل والمرأة في الزيجة الوحدانية، وأول اضطهاد طبقي يطابق اضطهاد جنس الإناث من قبل جنس الذكور كانت الزيجة الوحدانية تقدماً تاريخياً عظيماً لكنها في الوقت ذاته دشنت، هي والرق والثروة الخاصة ، ذلك العهد القائم إلى اليوم الذي يكون فيه كل تقدم تقهقراً نسبياً أيضاً، العهد الذي يدرك فيه بعض الناس مصلحتهم وتطورهم بشقاء الناس الآخرين واضطهادهم والزيجة الوحدانية هي الشكل الخلوي للمجتمع المتحضر، نستطيع أن ندرس فيها طبيعة الخلافات والتناقضات التي تتطور تطوراً تاماً في المجتمع"[1]، كما تساعد هذه الأنثروبولوجيا في فهم الخلافات الجوهرية بين الإنسان كحيوان يدخل في الصيرورة الاجتماعية عن طريق العمل وغيره من الحيوانات وأيضاً هنا يعلق هابرمس على هذه المسألة فيقول:" مثلما أن كل ما هو طبيعي يجب أن يتكون، كذلك فإن الإنسان يملك فعل تكونه الذي هو التاريخ، والذي هو بالتالي بالنسبة إلى الإنسان تاريخ معلوم ولذلك فهو فعل تكون يتجاوز ذاته بالوعي. التاريخ هو التاريخ الطبيعي الحقيقي للإنسان"[2]، بهذا الشكل نلاحظ أن الثقافة والمجتمع في النظرية الاجتماعية مقيدان بالظروف المادية وإن عناصر الثقافة التي يكتسبها الإنسان مرتبطة بهذه الظروف وبسبب هذه الظروف المادية تتشكل الطريقة التي يرى فيها البشر العالم والأشياء، وبالتالي" يعتبر تاريخ البشرية، بالنسبة لجميع العلوم الاجتماعية موضوعاً للدراسة ومادة في الوقت نفسه"[3]، وقد قام بعض المفكرين الماركسيين أمثال كلارك بشرح هذه المسالة بالقول:" فالأفراد يولدون ضمن ثقافة معينة وهذه الثقافة تميل إلى تشكيل الطريقة التي فيها يرى الأفراد للعالم. هذه الطريقة في الرؤية يسميها كلارك بخارطة المعاني. غير أن هذه الخرائط للمعاني والثقافات المتصلة بها سوف تتغير بتقدم التاريخ وبمدى فاعلية المجموعات الاجتماعية في خلق وابتكار ثقافاتها. هذه المجموعات الاجتماعية لا تستطيع خلق ثقافات جديدة حسب رغباتها، فالثقافات ترتبط دائماً بالخبرات والظروف المادية وهي تتشكل على الدوام ولو جزئياً بالثقافات السابقة. كذلك فإن الثقافات توجد ضمن العلاقات التنظيمية لثقافة أخرى. إن ثقافة الجماعات المسيطرة هي دائماً تكون أكثر قوة من ثقافة الجماعات الأخرى، إلا أن كلارك يرفض وجود ثقافة تسيطر على المجتمع"[4]، ولكن من خلال شرح ما تفعله الأنثروبولوجيا من حيث تشكل الثقافة والمجتمع فلا بد من شرح الألية التي يتشكل فيها الوعي طالما أنه؛ أي الوعي جزء أساسي في عملية العمل الاجتماعي الذي من خلاله ينكشف جوهر طبيعة الإنسان كما تتشكل الذات الإنسانية بوصفها ذاتاً اجتماعية وأيضا هنا يشرح هابرمس المسألة فيقول:" عندما يرى ماركس في تاريخ الصناعة؛ أي في تطور نسق العمل الاجتماعي الكتاب المفتوح لقوى الكائن الإنساني، والسيكولوجيا الإنسانية الماثلة حسياً عند ذلك لم يكن في تصوره أية علاقة تجريبية، وإنما علاقة تكون تاريخية، فمراحل الوعي الظاهر تتعين من خلال القواعد الترنسندنتالية لإدراك العالم والفعل، وتكون الطبيعة الموضوعية معطاة في هذا الإطار في كل مرة لذات اجتماعية محددة، غير أن هذا الإطار ذاته يتغير تاريخياً بالارتباط مع طبيعة ذاتية تتشكل من خلال نتائج العمل الاجتماعي، الجملة المشهورة التي تقول بأن تكون الحواس الخمس عمل تاريخ العالم السالف بكامله، إنما تقصد بحرفيتها، والاستقصاء المادي للتاريخ يتجه نحو مقولات المجتمع التي تحدد بوقت واحد سيرورة الحياة الواقعية،

---

[1] – انجلز، فريدريك. أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة، ،(مرجع سبق ذكره)، ص94.

[2] – هابرمس، يورغن. المعرفة والمصلحة،(مرجع سبق ذكره)، ص32.

[3] – Kratke.R.Michale. Marx and World History. Department of sociology, Bowland north Lancaster university, Lancaster,2018,p.1.

[4] – هولبورن وهارلمبس. سوسيولوجيا الثقافة والهوية، (مرجع سبق ذكره)،ص36.

كما تعين الشروط الترنسندنتالية لتكون عوالم الحياة"[1]، وبهذا الشكل يمكن فهم الثقافة والمجتمع داخل النظرية الماركسية بارتباطهما بالعمل الاجتماعي والأنثروبولوجيا الاجتماعية، فمن جهة أولى يشرح العمل تحول الإنسان داخل الصيرورة التاريخية للعمل المنتج وتحققه كحيوان منتج صانع أدوات والتالي منتج ثقافة مشروطة بشروط مادية أما الأنثروبولوجيا التي تحاول البحث في حقائق العقل فإنها تساعد على شرح مفهوم الثقافة وعلاقتها بالوعي العقلي الذي هو بدوره أيضاً مشروط بالشرط التاريخي لتكون الوعي.

ثالثاً: الثقافة والحضارة في المفهوم الماركسي:

هنا علينا أن ندرس مفهوم الحضارة دراسة تاريخية بحيث تحقق هذه الدراسة القيمة الموضوعية للهدف المراد منها وهو فهم الحضارة ودراستها بعيداً عن الأحكام التقويمية، فالحضارة هنا لا تعني التقدم والتأخر أو التخلف ولا تعني الجيد والسيء، وإنما الحضارة هنا تشير إلى مفهوم موضوعي له مكونات من أهمها الثقافة، وإذا كانت الماركسية تحدثت عن الصراع بوصفه المحرك الأول لتاريخ الحضارة فإننا نجد أن الثقافة قد رافقت تطور الصراع، وأول ما يجب أن يلفت الانتباه بهذا الصدد الحدث الذي يبني عليه ماركس موقفه من الحضارة ومن حركة التاريخ بشكل عام وهنا تبرز قضايا التحليل الفينومينولوجي التي تناولها ماركس بالنقد كما يبرز ما يسميه ماركس الفعل الأداتي الذي يعود إليه الفضل في خلق الذات للأنا المطلقة، وهنا يلاحظ هابرمس بأن ماركس" يختزل حدث التأمل إلى مستوى الفعل الأداتي، فمن حيث أنه يرجع الخلق الذاتي للأنا المطلقة إلى الإنتاج العياني للنوع، يقيم بدلاً عنه التأمل إجمالاً كشكل حركة للتاريخ في إطار مستديم للفلسفة التأملية، وإعادة تفسير الفينومينولوجيا الهيغلية تكشف النتائج المفارقة للتجويف المادي الذي تتعرض له فلسفة الأنا لفشته، لا يتطابق فعل التملك مع الاستحضار التأملي للذات التي تقود هذا التأمل، عندما لا تتوافق الذات المالكة حصرياً في لا أنا مع قطعة تنتجها الأنا وإنما مع قطعة محسوبة من الطبيعة، تتداخل علاقة خلق ما هو سابق وخلق ما لا يجعل نفسه شفافاً"[2] .

بهذا الشكل نفهم أن الفلسفة الماركسية لا تفهم الحضارة فهماً مسطحاً تماماً كما لا تفهم التاريخ بوصفه خطاً مستقيماً، بل يتم التركيز على قدرة الأنا على خلق التاريخ ضمن الفعل الأداتي حيث تبرز الحضارة هنا بوصفها تراكم الفعل الأداتي ضمن مسيرة التاريخ، دون أن يعني ذلك إغفال قيمة الفعل الاجتماعي والسياسي التي تبرز فيه وحدة الأنا في اندماجها مع الفاعليات السيوسيوثقافية المحيطة بها، وقد رأى بعض النقاد أن فهم الحضارة مرتبط بفهم الأيديولوجيا وخصوصاً بالجانب الذي يتعلق بحضور الأنا في تكون التاريخ والحضارة ، وضمن هذا السياق يجري الحديث عن مشكلات تاريخية تتعلق بالفرد منها على سبيل المثال مشكلة الوجدان الكاذب الذي يفعل فعله خلال تكون المفاهيم العامة للحضارة، وخصوصاً المفاهيم القيمية وهو ما يذكروه كارل مانهايم عندما يتحدث عن هذا الوجدان الذي يتعلق بالمفهوم العام والكلي للحضارة عندما تنتقل إلى ايديولوجيا وهو يشرح هذه العملية فيقول:" يحدث خلال عملية التاريخ الجدلية " الديالكتيكة" بصورة حتمية الانتقال التدريجي من المفهوم العام الكلي اللاقيمي للأيديولوجيا إلى المفهوم القيمي، يختلف التقويم الذي نشير إليه الآن، على أي حال، عن التقويم المعروف سابقاً . فم نعد نقبل الفكرة القائلة بأن القيم السائدة في مرحلة تاريخية معينة هي قيم مطلقة وإن المعايير والقيم المقررة تاريخياً واجتماعياً لا يمكن أن تفلت

[1] – **هابرمس، يورغن. المعرفة والمصلحة، ،(مرجع سبق ذكره)،ص34.**

[2] – **المرجع نفسه، ص34.**

منا"[1] ونستطيع أن نرى أن هذا المثال الذي نقدمه حول تركز الأنا داخل التاريخ والحضارة والمشكلات الناجمة عن هذا التمركز خصوصاً فيما يتعلق بعملية الجدل التاريخي أو الديالكتيك كان قد خلق انتقادات من خلال المذهب الذرائعي البراغماتي لمفهوم الديالكتيك وعلاقته بتكون المعنى التاريخي للأنا التي تعكس الحضارة انعكاساً ثقافياً في تكونها الفردي والكلي حتى أن النقاد الذين يتناولون مفهوم الكلية في التاريخ يحاولون فصل ما هو ثقافي عن ما هو ايديولوجي في مفهوم الحضارة عند ماركس بشكل خاص وفي الماركسية بشكل عام ويذهب هؤلاء النقاد لتوضيح معنى الكلية بالقول:" ليست الكلية في المعنى الذي ندركه عبارة عن رؤيا مباشرة للواقع تتصف بالثبوت والصحة الخالدة الأبدية، التي يمكن أن تعزى إلى عين آلهية فقط: فهي ليست وجهة نظر ثابتة ومستقرة تكفي نفسها بنفسها، بل هي على العكس من ذلك وجهة نظر " كلية" تتضمن ظاهرتي التمثيل والامتصاص من جهة، والتسامي والتفوق من جهة ثانية، على حدود وجهات النظر الخاصة، تمثل وجهة النظر " الكلية" العملية المستمرة المتواصلة لتوسيع آفاق المعرفة، وامتداد مجالاتها، هدفها ليس الوصول إلى نتيجة صحيحة وثابتة، تتجاوز حدود الزمان، وإنما تحقيق أوسع امتداد ممكن لآفاق " تطلعاتنا"[2].

ويبدو أنه من الضروري الفصل بين ما هو ايديولوجي وما هو ثقافي لفهم طبيعة الحضارة في الفلسفة الماركسية فواقع الأمر ان ما هو ثقافي يشغل حيزاً مهماً في تكون الحضارة من حيث إنها منظومة قيمية وهي منظومة لا تتشكل من خلال إرادة واعية ثقافية أو ايديولوجية ولكنها تتشكل خلال العمل الإنساني؛ فالعمل هو الوحدة الأساسية التي يبنى عليها تشكل القيم بدءاً من القيم الاقتصادية إلى القيم الجمالية والأخلاقية وغيرها وهذا ما يؤكد عليه كل الاقتصاديين الذين قاموا بتحليل مفهوم القيمة والسلعة وصولاً إلى الفلسفة الماركسية التي رأت أن العمل كان شرط انتاجي هو مصدر كل قيمة وهو ما تتفق فيه الفلسفة الماركسية مع كل الفلسفات السابقة وهو ما أشار إليه ميشيل فوكو بقوله:" بالطبع، يرى ريكاردو، كما سميث، أن بوسع العمل أن يقيس تعادل البضائع التي تمر في دورة التبادلات:" في بداية المجتمعات، لا تتوقف قيمة الأشياء القابلة للتبادل، أو القاعدة التي تحدد كمية الشيء الواجب إعطاؤها، مقابل شيء آخر، إلا على كمية العمل المقارنة التي استعملت في إنتاج كل منهما، لكن الفرق بين سميث وريكاردو كامن في ما يلي: لأن العمل، بالنسبة إلى الأول ممكن التحليل إلى أيام من المعاش، فإنه يمكن أن يقوم مقام وحدة مشتركة بين جميع البضائع الأخرى التي تدخل في عدادها أيضاً السلع الغذائية الضرورية للإعاشة؛ أما بالنسبة للثاني فإن كمية العمل تسمح بتحديد قيمة أحد الأشياء، ليس فقط لأن هذه القيمة ممكنة التمثيل بوحدات من العمل، إنما أولاً وأساساً لأن العمل كنشاط انتاجي هو مصدر كل قيمة "[3]، ويبدو أن فهم القيمة بهذا الشكل هو فهم ثقافي وعملي في الوقت نفسه وهذا ما يجنب مفهوم الحضارة أي طابع ايديولوجي عند ماركس ويجعل من الممكن فهم كل اليات تشكل الحضارة عند ماركس مبنياً على علاقة العمل المنتج بالتاريخ.

[1] –مانهايم، كارل. الأيديولوجيا واليوتوبيا،ت: عبد الجليل الطاهر، مكتبة بغداد، 1968، ص176

[2] – المرجع نفسه، ص191

[3] – فوكو، ميشل. الكلمات والأشياء، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1990، ص218.

الاستنتاجات والتوصيات:

لقد انتهى البحث الذي بين أيدينا إلى مسائل عدة لا يمكن اعتبارها مسائل قطعية، بل هي مسائل خلافية تمهد الطريق أمام أبحاث جديدة تتابع فيها هذه الأبحاث العلاقات الثقافية والاجتماعية داخل المجتمعات ما بعد الماركسية وكان البحث قد تطرق على هذه المسألة وعلى عجالة إنما تحدث على الفهم البنيوي للثقافة بحيث يغدو المجتمع بنية ثقافية أكثر مما هو ثمرة التفاعل بين العمل المنتج والتاريخ، كذلك يمكن التنويه إلى مسألة أخرى تلك التي تتعلق بفهم قضية العمل المنتج أساساً إذ إن الأدوات ووسائل الانتاج قد تطورت على الصعد كافة مما يجعل تعريف العمل المنتج محطة تمحيص ودراسة خارج الدراسة التقليدية التي كانت قد طغت في عصر النظريات الماركسية التقليدية والتي عرفت العمل ضمن علاقات الإنتاج ووسائل الإنتاج في بواكير البرجوازية الصاعدة وقد خضع هذا العمل إلى التغير كونه قد استبدل الكثير من الخصائص الأساسية لمفهوم العمل المنتج وكذلك لمفهوم التاريخ. كما أن هذا البحث يفسح المجال أمام إعادة دراسة المجتمعات بين واقعين واقع الثقافة وواقع التاريخ.

المصادر والمراجع:

1. انجلز، فريدريك. أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة، ت: أديب يوسف شيش، دار التكوين، دمشق، 2011.
2. بورادوري، جيوفانا. *الفلسفة في زمن الإرهاب، حوارات مع يورغن هابرماس وجاك دريدا*. ط1، ت: خلدون النبواني، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، 2013.
3. دريدا، جاك. أحادية الآخر اللغوية، ت: عمر مهيبل، منشورات الاختلاف، بيروت، ط1، 2008.
4. دلوز، جيل. المعرفة والسلطة(مدخل لقراءة فوكو)، ت: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1987.
5. غيرتر، كليفورد. تأويل الثقافات مقالات مختارة، ت: محمد بدوي. ط1. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2009.
6. فوكو، ميشل. الكلمات والأشياء، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1990.
7. ليتش، إدموند. كلودليفي شترواس، ت: ثائر ديب، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2002.
8. مانهايم، كارل. الأيديولوجيا واليوتوبيا،ت: عبد الجليل الطاهر، مكتبة بغداد، 1968.
9. هابرمس، يورغن. المعرفة والمصلحة، ت: حسن صقر، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2002، ص32.
10. هولبورن وهارلمبس. سوسيولوجيا الثقافة والهوية، ت: حاتم حميد محسن، دار كيوان، دمشق، ط1، 2010.
11. Kratke.R.Michale. Marx and World History. Department of sociology, Bowland north Lancaster university, Lancaster,2018